الفصل السادس

الصدق والزمن

الفصل السادس

الصدق والزمن

إذا كانت مشكلة الصدق هى مشكلة الفلسفة، فإنها على ذلك ليست مشكلة تاريخية مجردة، ولكنها مشكلة الزمن الراهن التى يثار حولها الجدل، ولذلك فهى مسألة غير منتهية النزاع[1]. حيث إن الزمن إحدى المشكلات الرئيسية التى يحاول الفكر الفلسفى أن يجد لها حلاً. حيث ارتبط الزمن دائماً بالوجود، فنحن لا نفكر فى أحدهما دون أن نفكر فى الآخر، فالوجود منذ فجر الفكر الفلسفي مرادف للحضور. والحضور يكون فى أفق الحاضر و يتكلم بصوته، والحاضر فى التصور الشائع يعد من الأبعاد الثلاثة التى تلازم تصورنا للزمن الذى يسير على طريق لا رجوع فيه من ماض إلى حاضر إلى مستقبل. والماضى فى تصورنا الشائع أيضاً هو الذى لم يعد له وجود. كما أن المستقبل هو الذى لم يوجد بعد[2].

وهكذا تنتهى النظريات الرئيسية للزمن إلى أنه الكائن السيال المنقضى دائماً: ماض لم يعد، ومستقبل لم يأت، وحاضر لا يكون أبداً، ينفلت من بين الأصابع دائماً. ومجرد الإمساك باللحظة الراهنة يعنى انفلاتها و إتيان اللحظة التالية لتنفلت هى كذلك فى توال لا يتوقف أبداً. أو لم نبدأ من اللحظة واللحظة «آن» و «الزمان « مكون من آنات يرفع كل منها الآخر، فهو تغاير مستمر، موجود بوصفه غير موجود، وغير موجود بوصفه موجود[3]. وعليها فقد صدق «جان بياجيه» J. Piaget حينما قال «إن الزمان مكان متحرك، والمكان زمان ثابت»[4].

---

(1) H. Wildon carr: The proplem of Truth, Dodge publishing, Co, New York, 1913, P. v. preface

(2) يمنى طريف الخولى: الزمان فى الفلسفة والعلم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1992م، ص26.

(3) المرجع السابق: ص27.

(4) المرجع السابق: ص19.

و يشير سانتيانا إلى أن علاقة الصدق بالزمن time تبدو لأول وهلة علاقة بسيطة، وذلك إذا أقيمت على مصطلحات شائعة بين الناس، فإذا قمت بإحصاء شامل لجميع الأحداث التى تحدث فى الزمن فسوف تحصل فى هذه الحالة على الصدق، ولكن الإحصاء الكامل complete repoty كما يقول سانتيانا على الرغم من كونه فرضاً جدلياً يحاول البحث عن الحقيقة إلا أنه يظل دائماً مثلاً أعلى «أى يوتوبيا فلسفية» لن يظهر إلى النور، بل يظل مجرد أمنية لا تتحقق[1]. فالصدق الكلى الذى ننشده لا يمكن الحصول عليه أبدا، لأن ذلك سيستغرق وقتا طويلا من عمر الإنسان، بل ربما يأخذ وقتاً أطول من الأحداث ذاتها عند حدوثها، حيث إن وسائل الملاحظة والتعبير عنها وسائل محددة بجميع المقاييس، وعلاوة على ذلك يعد المسح الشامل لهذه الأحداث ضرباً من المستحيل، وبالتالى يمكن اعتبار الصدق الكلى لهذا الكون مستحيلا معرفته. ولذلك فإن المسح البشرى الهائل للتاريخ يجب أن يكون تاماً وكاملاً، فالأحداث المستقبلية المتوقعة الحدوث يجب أن توضح وتبرز إلى النور، وعليها كان اكتشاف هذه الأحداث أو المسح الشامل لها لا يمكن أن يحدث بطريقة عرضية مفاجئة[2].

أن الصدق عندئذ كما يقول الفيلسوف محل الدراسة يبدو عبارة عن صورة من صور عالم الوجود فى كينونته الوجودية المجردة، ولذلك كان كل شيء فى بانوراما التاريخ مرتبطاً بالزمن، أما البانوراما ذاتها فهى بلا تاريخ محدد أى أنها دائمة التغير؛ لذلك كان نظام الأحداث ونسقها العام لا يمثل جزءًا من هذه الحقائق، ولا يمكن أن يحدث بعد أو قبل أى شيء آخر[3]. كما أن الصدق الذى نصف به الوجود يختلف فى خصائصه الأنطولوجية عن الوجود ذاته، فالحياة والحركةMotion قد انقضيا، وأصبحت كل المقاييس عبارة عن حقيقة واحدة متساوية فى صدقها، كما أن كل العصور أصبحت حاضراً على حد سواء، كما أن القوة والعقل والفعل قد أصبحت أحداث تاريخية، وأصبح الصدق فى هذه الحالة يشبه القمر الجميل، ولكنه كائن ميت، لأنه حتماً سيؤول إلى الماضى[4]. أى أن الحاضر يؤول إلى الماضى بالضرورة، والماضى هو

(1) G. Santayana: Realms of Being, op. cit, P.485.
(2) Ibid:P.485.
(3) Ibid: pp. 485.486.
(4) Ibid: P. 486.

مقبرة التاريخ، فالزمان معطى مباشر للوعى، ولكنه معطى شديد التعقيد، وهذا ما دفع إرنست كاسـيرر[*] فى كتابه «مقال فى الإنسان» إلى الإشـارة إلى عدة مستويات لإدراك الزمن، أدناها «الزمـن العضوى» وهـو الموجود لدى الكائنات الحية حتى لدى الأشـكال الدنيـا منها، و إذا اقتربنا من الحيوانات العليا سنجد شكلاً جديد يسميه كاسيرر « الزمن الحسى» وهو ذو طبيعة سيكولوجية معقدة، وفي النهاية نجد «الزمن الرمزى» الذى يدخل فيه مفهوم الزمن الفيزيائى العلمى الدقيق[1].

وعـلى الجانب الآخر يعتبر سـانتيانا أن الصـدق الملىء بالأحداث أغنى مـن الوجود فى أى لحظة من لحظاته، لأنه لا يحتوى فقط على ماهية جميع اللحظات التى مرت بالأحداث بطريقة متساوية، ولكنه أيضاً يحتوى على أكثر مما تحصل عليه كل لحظة من اللحظات المنفصلة بعضها عن البعض الآخر، بل وحتى عن جميع اللحظات فى وجودها الداخلى Inner being[2]. فالصدق بهـذا المعنى يمكن أن نسـميه كما يقول سـانتيانا - بـ « ذاكرة الكـون» The Memory of the universe. ولكنـه يعتبر أكثر من ذلك طالما أن مصير الكون يشـتمل على الصدق فى داخله[3]. ولكن إذا كان التوقيت الزمنى للأحداث يمكن أن يكون معبرا عن العلم الصادق، فإن الذاكرة

(*) ولد الفيلسوف الألمانى إرنست كاسيرر Ernst Cassirer فى 28 يوليو سنة1874 بمدينة برسلاوBreslaw بألمانيا فى أسرة أحد التجار الألمان وقبل مولده فقدت الأسرة أحد أطفالها فكان لهذا الحادث وقعه الأليم عليها ومن هنا كان اهتمام الأسرة بمولد إرنست كاسيرر. وتمر الأيام ويصبح كاسيرر الطفل المدلل والابن المفضل بين أفراد أسرته ويستمر هذا التفضيل على الرغم ممن تعاقبوا بعده من الأبناء. كما يعد كاسيرر من أهم ممثلى النزعة الكانطية الجديدة فى العصر الحاضر، يجمع بين المنهج الصورى والنظرى والحس التاريخي الأصيل. هدف فلسفته - كما يقول - هو التمييز بين الأشكال (التاريخية) الأساسية المختلفة لفهم العالم بدلا من الاكتفاء ببحث الفروض والمبادئ العامة للمعرفة العلمية بالعالم. أهم كتبه: «مشكلة المعرفة في الفلسفة والعلم في العصر الحديث» (فى ثلاث مجلدات1906 - 1920)، فلسفة الأشكال الرمزية (في ثلاثة أجزاء عن اللغة والتفكير الأسطورى والدين، وظاهريات المعرفة، صدرت بين سنتى1923 و 1929)، كذلك له كتاب بعنوان»الفرد والكون فى فلسفة عصر النهضة» (1927). ولقد نشر كاسيرر مؤلفات كانط وحققها.

انظر - محمد مجدى الجزيرى: الفن والمعرفة الجميلة عند كاسيرر، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، 2002م، ص11.

(1) يمنى طريف الخولى: الزمان فى الفلسفة والعلم، مرجع سابق، ص 32.

(2) G. Santayana: Realms of Being, op. cit, p. 486.

(3) Ibid: p. 486.

والخيـال المسرحى يكونوا أعضاء لهذا الصـدق، فالصدق يتغير عند لحظة معينة بنفس السرعة التى تتغير بها الحقائق التى يصفها[1].

والصدق لا ينفصل عن الماضى والمسـتقبل كما لا ينفصل عن الحاضر، وقد توصل سانيتانا إلى هذه الحقيقة كمصدر لتحديد الصدق بالنسبة لكل من الماضى والمستقبل، فإذا كانت هناك حقيقـة مرتبطة بالماضى مثلما نقـول « كان من الصدق أن نقول أن يوليوس قيصر كان حياً قبل شهر مارس» ولكن بعد ذلك أصبحت هذه العبارة حقيقية حيث أن يوليوس قيصر قد مات، بل نستطيع أن نقولها بطرق أخرى مثل أن يوليوس قيصر كان على قيد الحياة، أو نقول أن الصدق هو أن يوليوس قيصر كان حياً، فإن استخدام العبارة الأولى لا يجعلنا ننفى العبارات التالية، فإذا كان يوليوس قيصر حياً فى وقت معين، فقد كان إذن حياً[2].

وهنا يشـير سـانتيانا إلى أن هناك كلمتان تعانيانا بشـكل خاص من ذلـك النظام الفرضى، وذلك عند تغير الصدق الذى نتحدث عنه، وهما كلمة «أنا» وكلمة «الآن» فأنا أستطيع أن أقول بصـدق أننى الآن صغـيراً فى العمر، فى الوقت الذى أقول فيه بصـدق أننى الآن كبيرا فى العمر، لهـذا فـإن الصدق فيما يبدو لى قـد يتغير، ولكن لم يكن أبدا صادقـاً حيث أننى الآن صغيرا فى العمر، وإذا كانت كلمة الآن now تعنى سنة 1936 ولكن كلمة الآن منذ خمسين عاما تختلف عـن كلمة الآن فى هذا الوقـت الحاضر، ولهذا فإن الماهيـة التوكيدية ذاتهـا والحياة الوجودية تكون منقضية مثل كلمة الآن بالنسبة لهذا اليوم، فهى تختلف إذاً فى اللحظة الأبدية[3].

ولكننـا يمكننا القول إن الفكرة الأساسـية الموجـودة داخل العقل، تتصل اتصالاً أساسـياً بالواقع الزمكانى ككل. ويحتوى الماضى والحاضر على لحظات تظل طافية على سطح الأحداث، سـواء كان الحاضر على السطح تماماً أم يختص بفترة زمنية أبعد قليلاً. وباختصار فإن الحودات المستقبلية قد لا تكون حقيقية تماماً حتى تتحول إلى جزء من الواقع فيتم التحامه بواقع لحظى حى يأخذ صبغة الحاضر الذى نعيش فيه[4].

(1) Ibid: pp. 488,489.
(2) Ibid: p. 489.
(3) Ibid: pp. 490,491.
(4) Timothy L. S. Sprigge: Santayana, op. cit, p.184.

ونستنتج مما سبق. أن الصدق هو تلك الأحداث التى مضت، كما أن وقائع الحياة تشهد على صدقها، وما نسـميه زمن الماضى أو زمن المسـتقبل إنما يكون ماضيا أو مستقبلاً ابتداء من هذه اللحظة التى انطلق فيها، فلا وجود لماض أو مستقبل مطلقين، كما أنه لا وجود لزمن مطلق إلا إذا كان فكرة ذهنية مثالية وليست واقعية. فالحقائق عبارة عن ماهيات، وهذه الماهيات عبارة عن ماهيات أبدية[1]. والصدق الذي يتحدث عنه سـانتيانا هنا هو صدق متجاوز للزمن وأبعد منـه، كما أنه صدق أبدي، حيث يتناقض مع صيرورة هذا الوجود المتقلب، فكل الأشـياء تمر وتنقـضى وتمـوت من خلال الزمن، ولكن الصدق الناتج عن هذه الأشـياء يظل باقياً فى كينونته الداخلية[2].

(1) Ibid: p.176.
(2) Ibid: p.176.